131587

الدكتور محمد الواسطي

ظاهرة البديع
عند الشعراء المحدثين
دراسة بلاغية نقدية

10 ، شارع الفضيلة - الحي الصناعي
يعقوب المنصور - الرباط
الهاتف : 037 79 57 02 - 037 79 69 14/38
الفاكس : 037 79 03 43 - 037 79 79 63/64

الكتاب : **ظاهرة البديع عند الشعراء المحدثين** -دراسة بلاغية نقدية-
تأليف : **د. محمد الواسطي**
نشر وتوزيع : دار نشر المعرفة - رقم 10، شارع الفضيلة - الحي الصناعي - الرباط
الهاتف : 02 57 79 037 / 14 69 79 037
الفاكس : 43 03 79 037 - الرباط - المغرب
حقوق : © جميع الحقوق محفوظة
الإيداع القانوني : 2003/1898
ردمك : 9954-20-033-9
الطبعة الأولى : 2003
طبع: مطبعة المعارف الجديدة - الرباط - المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

إلى اللذين رباني صغيرا
وحببا إلي الصبر والقناعة
أهدي هذه الصفحات
ولن تكون شيئا في جانب ما كانا يكابدان
وإنما هو الإكبار والوفاء والبر.

مقدمة: موضوع البحث وأهدافه ومنهجه.

حين أقبلت على دراسة «ظاهرة البديع عند الشعراء المحدثين» كنت أعرف قيمة هذه الظاهرة، وأدرك دلالتها البعيدة، فهي - في حقيقتها - محاولة للتجديد، وثورة من أجل التحرر وإثبات الذات في عالم الإبداع الشعري.

وبيان ذلك أن الشعر العربي عهدان طويلان: عهد القدماء، وعهد المحدثين. ويتميز الشعر العربي القديم بأنه شعر البداوة، نبت في الصحراء ونما وترعرع فيها، فهو وليد الرحيل والتنقل وانتجاع مساقط الغيث. ويتميز أيضا بأنه شعر العصبية وما يتعلق بها من غارات وحروب يفرضها الانتماء إلى القبيلة والذود عن حياضها. كما يتميز بأنه شعر الطبع والفطرة والسليقة يفيض من القلب ويتدفق من الجوانح. فالشاعر متى تخلجت المعاني في نفسه، وجالت الخواطر بذهنه، سارع إلى التعبير عنها بأقرب الطرق وأوضحها، فهو لايتكلف قول الشعر ولايشقى به أو يتأنق فيه كثيرا، وإنما يحرص على المعنى قبل حرصه على اللفظ يصرف همه إلى إخراجه وإبرازه في يسر ووضوح، وقد كانت الصياغة رصينة فصيحة، تتسم بفخامة الألفاظ، وجزالة العبارة، ومتانة التراكيب، ووضوح الإشارات، وظهور الحكايات، وقرب المجاز من الحقيقة، تلك - على العموم - حال الشعر العربي طوال العصر الجاهلي والإسلامي والأموي.

فلما جاء القرن الثاني وآل الأمر إلى الدولة العباسية تغيرت الأحوال كثيرا، وابتعدت الحياة عما كانت عليه في العهد القديم، وتطورت تطورا كبيرا على الصعيد الاجتماعي والثقافي، بحيث قلت البداوة وخفت وطأتها، واستوطن كثير من الشعراء الحواضر الكبيرة كالكوفة والبصرة وبغداد، وتوطدت الصلات بين العرب وبين الأمم التي دخلت تحت لوائهم، فتغيرت أصول العادات والأخلاق، وظهرت ألوان من السلوك لم تكن معروفة من قبل، وكان هناك تحول ثقافي كبير نجم عن توقد الذهن العربي وتفتحه على ثقافات الأمم المتحضرة.

وفي خضم هذا التحول قامت ثورة أدبية كبيرة نادى فيها كثير من الشعراء بضرورة تجديد الشعر العربي وجعله مرآة صافية تعكس الحضارة العباسية الناعمة، ولسانا صادقا يعبر عن المدنية الجديدة الرقيقة.

وكان لهذا التحول مظاهر كثيرة أهمها التجديد على مستوى اللغة الشعرية، وقد هز هذا التجديد مفهوم الشعر هزا قويا، ذلك أن جمال الشعر عند القدماء كان يرتكز على صحة المعنى وتحديده وإخراجه في عبارات قوية واضحة رصينة.

أما عند المحدثين فإن جمال الشعر لايرجع إلى ما يقال وإنما يرجع إلى طريقة القول وإبراز المعنى وإخراجه في بيان جميل، يقوم على تخير العبارة وتنميقها، وزخرفتها بأساليب الكلام من استعارة، وتجنيس، وطباق، وغيرها من الألوان التي أطلق عليها مصطلح

"البديع"[1].

ومن ثم تغير مفهوم الشعر، وأصبح فنا يجري الشاعر فيه وراء جمال اللغة في الصوت، والكلمة، والعبارة، والصورة. وكان هذا على يد طائفة من الشعراء ينتمون إلى مذهب جديد من رجاله: بشار بن برد، وأبو نواس، ومسلم بن الوليد، وأبو تمام، وفي المقابل كانت هناك طائفة أخرى من الشعراء تحتذي القدماء وتصب على قوالبهم، ولاتجدد إلا بمقدار ما يوافق الروح العربية ويلائم الصياغة القديمة. وهكذا أصبح الشعر العربي نوعين متميزين بينهما تفاوت كبير في طريقة التعبير والصياغة، وقد كان هذا موضع اختلاف بين النقاد، مما أدى إلى قيام خصومة عنيفة بين الاتجاهين الشعريين اللذين تحددت معالمهما وتوطدت أركانهما، فأصبح لكل منهما أتباع وأنصار يذودون عن وجهة نظرهم في عمل الشعر وصناعته.

ومن هنا وقع اختياري على موضوع «ظاهرة البديع عند الشعراد المحدثين»، وهو موضوع ينصب أساسا على أول ثورة حقيقية في مسيرة الإبداع الشعري عند العرب، ويرصد ما نادى به المحدثون من تجديد، ويتتبع ألوانه المختلفة، وينظر في أهدافه البعيدة، وهي أنهم أرادوا أن يكون لهم تميز وأسلوب خاص في الإبداع الشعري، يواكب عصرهم، ويعبر عن إحساسهم وواقع حياتهم المعيش.

وقد شجعني أكثر على البحث في هذا الموضوع أن دراسات كثيرة معاصرة تتجه إلى أن جمال الشعر يرجع بالدرجة الأولى إلى شكله، أي أنه كما يرى بعض النقاد «لايصنع من أفكار، وإنما يصنع من كلمات»[2]، أو أنه كما يقول ناقد آخر «اللغة موظفة جماليا»[3]. وهو نفس ما ذهب إليه طائفة من الشعراء في العصر العباسي.

ومعنى هذا أن موضوع البديع عند الشعراء المحدثين قديم جديد في الآن ذاته، لم يتجاوزه الزمن أبدا، وإنما له حضوره المستمر في مجال الإبداع والنقد، وكل ذلك يقوي مشروعية البحث فيه ويؤيدها.

ولهذا الموضوع أصول في النقد العربي قديمه وحديثه، فقد أدرك اللغويون والرواة والنقاد أن شعر المحدثين يختلف عن شعر القدماء، وحاول ابن المعتز تحديد أوجه هذا الاختلاف فحصرها في «البديع»، كما بذل الآمدي جهدا كبيرا للتمييز بين القدماء والمحدثين في صناعة الشعر، وذلك من خلال موازنته بين شعر أبي تمام وشعر البحتري، باعتبار الأول يمثل المحدثين، والثاني يمثل القدماء، وكذلك فعل ابن طباطبا والقاضي الجرجاني وابن رشيق وسواهم.

وفي النقد الحديث نجد كتبا تتصل بالموضوع منها: "المذهب البديعي في الشعر والنقد" للدكتور رجاء عيد، و"البديع تأصيل وتجديد" للدكتورمنير سلطان، و"علم البديع نشأته

(1)- انظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب لطه أحمد إبراهيم: 96-97

(2)- نظرية المعنى: 38.

(3)- شكل القصيدة العربية في النقد العربي: 188.

وتطوره" للدكتور عبد الرزاق أبو زيد، و"البديع في شعر أبي تمام" للأستاذة فاطمة حسيمي وهي رسالة مرقونة.

فقد عرض هؤلاء جميعا لمفهوم الشعر عند المحدثين، وأبدوا رأيهم فيه، وانقسموا بشأنه، فأيده بعضهم ورفضه آخرون، ومع ذلك فإن هذه الأصول جاءت جزئية عامة لا تنطبع بطابع الوحدة، فالنقاد ولاسيما القدماء لم يحفلوا كثيرا بتجديد المحدثين لأنهم رأوه مجرد بدعة، كما أنهم لم يتتبعوا ما رأوه جديدا في شعر الشعراء الذين استفاض عندهم التجديد بحيث يفصلون القول في كل فن بديعي فيحللون ويقارنون، وإنما اكتفوا بسرد بعض الأمثلة من هنا وهناك، وهذا لايجلي الظاهرة، ولايمثلها تمثيلا حقيقيا واضحا.

في ضوء هذا كله، كان اختيار «ظاهرة البديع عند الشعراء المحدثين» موضوعا لهذا البحث، وكان شعوري بإهمال قيمة هذه الظاهرة وإغفال جمالها وغموض الصورة عنها وعدم اكتمالها يدفعني باستمرار إلى دراستها، وبيان فاعليتها في الخلق الشعري، باعتبارها تمثل أول صيحة مدوية للحداثة.

وبكلمة أخرى، فإن هدفي الأساسي من البحث هو محاولة التعمق في قراءة "البديع" عند الشعراء المحدثين قراءة علمية متأنية في ضوء منهج جديد، من أجل سد ما فيه من ثغرات، والوصول به إلى فهم أدق وأعمق، لأنني من الذين يؤمنون بأن اللغة بإمكانها أن تخلق المعاني، وتخلع على الموضوع الشعري الجمال والبهاء، وأنها ليست مجرد لباس أو كسوة لها تأتي في المرتبة الثانية بعدها.

وبناء على هذا الهدف تمثلت المنهج، وحصرت الموضوع في طائفة من الشعراء الذين استفاضت عندهم ظاهرة البديع، وانتشرت في إبداعهم انتشارا واسعا، وهم بشار بن برد، وأبو نواس، ومسلم بن الوليد، وأبوتمام، فهؤلاء أمراء البديع وفرسانه الذين جددوا عن بصيرة ووعي.

أما غيرهم من أمثال ابن هَرْمة والعتابي ومنصور النَّمَري والراعي وأشباههم، فإن إبداعهم للشعر القديم أقرب منه للمحدث، بحيث لايكون مذهبا جديدا، ولذلك لم أجعلهم ضمن مذهب البديع ورجاله، على الرغم من أن الجاحظ توسع فسلكهم فيه، وقد كان عبدالله بن المعتز أكثر منه دقة عندما أدرك أن البديع بمعناه الاصطلاحي المحدث إنما كثر عند بشار بن برد وأبي نواس ومسلم وأبي تمام.

ولم أدخل في محيط الموضوع أيضا بعض الشعراء كالوليد البحتري وعبد الله بن المعتز، لأنهما وإن اشتهرا بالبديع فقد جاءا بعدما أخذ المذهب في الذبول والتراجع، وكان قد اكتمل على يد أبي تمام، وهدف هذا البحث هو رصد مذهب البديع من السفح إلى القمة لمعرفة مدى نموه وتطوره.

وقد حددت الخطة التي تستوعب مادة البحث في ثلاثة أبواب أوجز الكلام عليها فيما يلي:

الباب الأول: وقد أفردته للحداثة والبديع، وهو في الواقع بمثابة مدخل عام يسلط الضوء على موضوع البحث ويجليه، ويشمل هذا الباب فصلين:

الفصل الأول: في مفهوم الحداثة، وقد وقفت فيه عند هذا المصطلح وفصلت القول فيه، بحيث حددت معالمه وبينت موقف اللغويين والنقاد منه، كما تكلمت على مظاهر الحداثة، وهي مظاهر تتجلى في: ديباجة القصيدة، والموضوع الشعري، ولغة الشعر. وقد أكدت أن المظهر الثالث هو الذي يشكل سدى هذه الرسالة ولحمتها.

الفصل الثاني: في مفهوم البديع، وكذا الظاهرة. وقد رصدت فيه بوجه خاص مدلول المصطلح الأول، بحيث أوضحت تطور معنى البديع في مختلف العصور من الناحية اللغوية والاصطلاحية، فتكلمت عليه عند الجاحظ، ثم ابن المعتز ومن جاء بعده وعرضت لموقف النقاد منه، وأشرت إلى إن المراد بالبديع ليس معناه الذي ينحصر في المحسنات اللفظية والمعنوية كما نجد عند السكاكي ومدرسته، وإنما المراد به مدلوله العام الذي يشمل أساليب البلاغة كلها كما جاء في كتاب "البديع" لعبد الله بن المعتز ومن حذا حذوه وسلك مسلكه.

الباب الثاني: وقد خصصته لعلاقات البديع وأساليبه، وهو عمود هذه الرسالة وقوامها الذي تنبني عليه، ولذلك جاء طويلا يشمل خمسة فصول.

الفصل الأول: عن التشابه، وتكلمت فيه على أسلوبين هما: التشبيه والاستعارة، بحيث تتبعت أنواعهما في شعر المحدثين، وأسهبت في ذلك، وبينت قيمتهما في الإبداع الشعري والتصوير البياني عموما، وعرضت لبعض النظريات المتصلة بهما كنظرية المقارنة والتفاعل، ونظرية الإلحاق.

الفصل الثاني: عن التشارك، وفيه تناولت ثلاثة أساليب هي: التجنيس، والتصدير والارصاد أو التسهيم، وقد أطنبت في الحديث عن أنواع هذه الأساليب، وعقدت مقارنة بينها، وبينت مزيتها الدلالية والصوتية في الإبداع الشعري، إذ هي قيثارة الشاعر التي يعزف عليها فتحقق لشعره نغمة لذيذة.

الفصل الثالث: عن التقابل، ودرست فيه أسلوبين هما: المطابقة والمقابلة. حيث تكلمت على أصناف كل أسلوب وبينت الفرق بينهما، ووقفت عند مسألة العلاقة في التقابل وأشرت إلى أنواعها، كما أشرت إلى مزية التقابل من الناحية الجمالية والبيانية.

الفصل الرابع: عن التكرار، وتحدثت فيه عن خمسة أساليب، وهي: المذهب الكلامي، والتذييل، والعكس والتبديل، والترديد، والتعطف، وقد أفضت في الكلام على كل أسلوب، بحيث بينت قيمته الفنية وشرحت الفرق بينه وبين غيره من الأساليب المقاربة له.

الفصل الخامس: عن التوازن، وتكلمت فيه على أربعة أساليب، هي الموازنة بنوعيها الجزئية والكلية أو ما يسمى بالمماثلة، ثم الترصيع بلونيه المتقابل وغيرالمتقابل، وهو الذي يستغرق البيت كله، أو معظمه، أو شطره فقط، ثم التشطير، وهو أسلوب قريب من الترصيع، ثم التصريع، وهو أسلوب يأتي غالبا في مطلع القصيدة للدلالة على أن الكلام إنما هو شعر وليس نثرا.

الباب الثالث: وقد جعلته لخصائص مذهب البديع، وهو في الحقيقة تكملة لما جاء في الباب الثاني وتوسع فيه، إذ أنه تفصيل لما جاء فيه مجملا، بقصد رسم معالم مذهب البديع، وتجلية مميزاته وإبرازها، ويضم أربعة فصول.

الفصل الأول: عن الغوص، وله مظاهر ثلاثة: الاختراع، والتوليد، والأخذ بالفلسفة. وهي أمور تشير إلى جهود المحدثين في الإبداع الشعري، كما تشير إلى أن البديع يقوم على الشكل والمضمون معا ولايرجع إلى الشكل فقط كما قد يظن البعض.

الفصل الثاني: عن التوسع، ويخص بالدرجة الأولى علاقة التشابه، وهو إما توسع في إدراك العلاقة بين الأشياء، وإما توسع على سبيل الاستعارة المكنية وما يتصل بها من تشخيص وتجسيم، وهو نوع أثار غضب النقاد لأسباب ترجع إلى الأثر الديني، كما ترجع إلى الإحساس بضرورة الحفاظ على اللغة، وعلى الموروث الشعري.

الفصل الثالث: عن التداخل، ويعم جميع فنون البديع، وقد حصرته في تداخل التشبيه والاستعارة، ثم تداخل التشبيه وغيره من فنون البديع، ثم تداخل الاستعارة وسواها من نفس الفنون.

الفصل الرابع: عن التكاثر، وقد تحدثت فيه عن التكاثر على مستوى فن بديعي واحد، ثم التكاثر على مستوى فنين فأكثر، وهو من أهم الخصائص التي أثارت حفيظة النقاد، إذ رفضوه ولم يقبلوا منه إلا ما جاء قليلا وكان مساوقا للطبع.

والملاحظ أن كل فصل من فصول الباب الثاني - وهو أساس الرسالة وصميمها - عبارة عن علاقة تحتوي مجموعة من أساليب فن القول، وهو في اعتقادي منهج جديد على الرغم من أن العلاقات المذكورة كانت معروفة، لأن أحدا -فيما أعلم - لم يصنف أساليب البلاغة العربية اعتمادا على العلاقة، وإنما صنفها معظم البلاغيين على أساس اللفظ والمعنى، وخصوصا القسم الثالث من علوم البلاغة وهو "البديع" الذي قسموه إلى محسنات لفظية ومحسنات معنوية تبعا لانشغال النقاد العرب زمنا طويلا بهذه االثنائية، وهو تقسيم لاأراه مجديا في دراسة البلاغة لما فيه من فصل بين اللفظ والمعنى مع أنهما يكونان وحدة عضوية، بحيث لايمكن تصور أحدهما بمعزل عن مقابله، ولاحياة لكل طرف منهما إلا مع الآخر.